

قراءة موسعة

المجانين

(١) كنتُ في شبابي رجلاً مسْتَوراً، أَغْدو مِنْ بَيْتِي عَلَى دُكَانِي الَّتِي أَبْيَعُ فِيهَا: الْفُجْلُ وَالبَادِنْجَانُ وَالْعَنْبَرُ، وَسَائِرَ الْخَضْرَاوَاتِ وَالثَّمَارِ؛ فَأَرْبَحُ فِي يَوْمِي قُروشًا مَعْدُودَاتٍ، فَأَشْتَرِي بِهَا حُبْزًا وَلَحْمًا وَأَخْذُ مَا تَبَقَّى مِنَ الْخَضْرَاوَاتِ عَنْدِي فِي الْمَحَلِ إِلَى الْبَيْتِ؛ فَتَطْبِخُهُ زَوْجِي طَعَامًا لِي وَلَهَا. وَلَمْ يَكُنْ لَنَا آنَذَاكَ أُولَادٌ، فَكُنَّا نَاكِلُ هَذَا الطَّعَامَ الْمُتَوَاضِعَ، وَنَنَامُ حَامِدِينَ رَبِّنَا عَلَى نَعْمَانِهِ وَفَضْلِهِ. وَلَا نَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، وَلَا أَحَدٌ يَطْلُبُ مِنَنَا شَيْئًا.

(٢) فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، حَلَّتِ الْفَرَحَةُ الْعَارِمَةُ بَيْتَنَا! لَقَدْ حَمَلَتْ زَوْجِي بِمَوْلَودٍ فَحَمَدَتُ اللَّهَ كَثِيرًا عَلَى أَنَّ عَوْضَنَا عَنْ صَبَرْنَا الْطَّوَيلِ بِهَذَا الْمَوْلُودِ. وَصِرْتُ أَدَلُّ زَوْجِي الْحَامِلِ، وَأَقْوَمُ عَنْهَا بِكَثِيرٍ مِنْ أَشْغَالِ الْبَيْتِ.. خَشِيَّةً أَنْ يَسْقُطَ حَمْلُهَا بِسَبَبِ التَّعَبِ وَالْإِرْهَاقِ..

(٣) وَصِرْتُ أَنَا وَزَوْجِي نَعْدُ السَّاعَاتِ وَالْأَيَّامِ انتِظارًا لِسَاعَةِ الْوِلَادَةِ السَّعِيدَةِ الْمُرْتَقِبَةِ. حَتَّى كَانَتْ لَيْلَةُ الْمَحَاصِّ؛ فَسَهَرْتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُ وَصُولَ الْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ. فَلَمَّا أَنْبَلَجَ الْفَجْرُ، سَمِعْتُ الضَّجَّةَ، وَقَالَتِ الْقَابِلَةُ الَّتِي تُوَلِّ النِّسَاءَ فِي حَيْنَا: الْبِشَارَةِ... لَقَدْ رُزِقْتَ وَلَدًا! كَانَتِ الْأَرْضُ لَا تَكَادُ تَسْعَنِي مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ؛ فَإِنْ صَحِحَّ ضَحْكُتْ لَنَا الْحَيَاةُ، وَإِنْ بَكَى تَزَلَّزَتْ لِبُكَائِهِ الدَّارُ، وَإِنْ مَرَضَ اسْوَدَتْ أَيَّامُنَا، وَتَتَغَصَّتْ عِيشَتُنَا. وَكَانَ كُلُّمَا نَمَا وَشَبَّ قَلِيلًا قَلِيلًا، كَانَ لَنَا كَالْعِيدِ. وَكُلُّمَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ، جَدَّتْ لَنَا فَرَحَةً. وَصَارَ إِنْ طَلَبَ شَيْئًا بَذَلْنَا فِي إِجَابَةٍ طَلَبِهِ الرِّوْحُ. وَبَلَغَ وَلَدُنَا الْوَحِيدُ سِنَّ الْمَدْرَسَةِ فَقَالَتْ أُمُّهُ: إِنَّ الْوَلَدَ قَدْ كَبَرَ، فَمَاذَا نَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَلَّتْ لَهَا: آخُذُهُ إِلَى دُكَانِي، فَيَسْلَلَ وَيَتَعَلَّمُ الصَّنْعَةَ، لِتَتَفَعَّلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. فَقَالَتْ لِي: أَتَرِيدُهُ أَنْ يَكُونَ بائِعَ خَضْرَاوَاتٍ؟! فَقَلَّتْ لَهَا بِغَضَبٍ: وَلِمَ لا؟! وَهُلْ يَتَرَفَّعُ أَحَدٌ عَنْ مِهْنَةِ أَبِيهِ؟! فَقَالَتْ: لَا وَاللهِ لَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نُدْخِلَهُ الْمَدْرَسَةَ مِثْلَ أَبْنِ جَارِنَا. أُرِيدُ أَنْ يَصِيرَ أَبْنِي «مُوَظَّفًا» فِي الْحُكُومَةِ.

(٤) وَأَصَرَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَى رَأِيهَا إِصْرَارًا عَجِيبًا؛ فَسَاهَرْتُهَا وَأَدْخَلْتُهُ الْمَدْرَسَةَ. فَصِرْتُ أَقْتَطِعُ مِنْ طَعَامِي وَطَعَامِ زَوْجِي؛ لِنُوَفَّرْ لَهُ مَصَارِيفَ الدِّرَاسَةِ وَثَمَنَ الْكُتُبِ. وَكَانَ وَلَدُنَا هُوَ الْأَوَّلُ فِي صَفَّهِ... وَأَحَبَّهُ مُعْلَمَةً وَقَدْرَهُ. وَنَجَحَ وَلَدِي فِي الْامْتِحَانِ، وَنَالَ الشَّهَادَةَ الْابْتِدَائِيَّةَ. قُلْتُ لَهَا حِينَئِذٍ: يَا امْرَأَهُ!! لَقَدْ نَالَ إِبْرَاهِيمُ الشَّهَادَةَ الْابْتِدَائِيَّةَ؛ فَحَسِبْنَا ذَلِكَ وَحْسِبُهُ... لِيَدْخُلَ الدُّكَانَ، وَلِيَتَعَلَّمَ لَهُ حِرْفَةً. قَالَتْ: أَيْضَيْعُ مُسْتَقْبَلَهُ وَدِرَاسَتَهُ مِنْ أَجْلِ دُكَانِ خَضْرَاوَاتٍ؟! لَا بُدَّ مِنْ إِدْخالِهِ الْمَدْرَسَةَ الثَّانِيَّةَ. وَرَفَضَتْ ذَلِكَ، فَأَخَذَتْ تُوَلُولُ وَتَصْبِحُ، وَانْقَلَبَ الْبَيْتُ إِلَى جَحِيمٍ لَا يُطَاقُ. فَاضْطُرَرْتُ إِلَى الْمُوْافَقَةِ عَلَى دُخُولِهِ لِلْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَّةِ. وَازْدَادَتِ التَّكَالِيفُ، وَعَظَمَتِ الْأَعْبَاءُ وَأَنَا

صابر محتسب أكتوم في صدري، ولا أبوح لأحد بشيء منها. وبالفعل مررت السنوات، وحصل ولدنا «إبراهيم» على الشهادة الثانوية. قلت حينها: والآن هل بقي شيء؟! فقال الولد: نعم يا أبي. أريد أن أسافر إلى أوروبا، لأدرس المرحلة الجامعية هناك! قلت: أوروبا؟! وما أوروبا هذه؟! فقال: إلى باريس لأدرس هناك. قلت: أعود بالله!! والله العظيم لا يكون هذا أبداً وأنا حي!! وأصررت على موقفه من السفر، وناصرته أمه. فلما رأته لا ألين ولا أرضخ لطالبهما، باعث سوارين وقرطين، أعطيتهم إياها ليلة عرسنا، وهما كل ما تملكه من حلي، احتفظت بها مدة لتواء الدهر، ودفعت ثمن تلك الحلي لولدها، فسافر إلى فرنسا على الرغم مني. وغضبت على «إبراهيم» عصباً شديداً. وقطعته مدة؛ فلم أكن أجيب عن رسائله، التي كان يبعث بها إلينا من فرنسا. ثم رق قلبي له وأنت تعلم ما في قلب الوالد على ولده الوحيد. وصرت أكتبه، وأسئلته عما يريد. فكان دائماً يطلب مني تقدماً. ليكون مصروفاً له أشاء دراسته في فرنسا. في البداية كان يقول: أرسل لي عشرين ليرة... وثلاثين ليرة... فكنت أبكي أنا وأمّه ليالي بطولها على الخبز الجاف لأجل توفير المبلغ الذي يطلبه ابننا الذي يدرس في فرنسا.

(٥) وكان رفاقه وزملاؤه الذين يدرسوه معه. يجئون في إجازة الصيف إلى أهليهم وذويهم ليزوروهم، وكان هو لا يجيء ولا نراه. وكان يعتذر دائماً عن عدم حضوره إلينا في إجازة الصيف بحججه كثرة الدروس. تطور الأمر، فصار ولدي يتطلب منه ليرة! وفي مرّة أخرى، طلب مني أن أرسل له ثلاثة ليرة! فكتبت إليه أخبره بعجزي عن تدبير المال، ونصحته ألا يحاول تقليد رفاقه وزملائه؛ فإن أهلهم أثرياء موسرون ونحن فقراء على قدر حالنا. فكان جوابه على نصيحتي تلك برقية مستعجلة، يتطلب فيها إرسال المال إليه حالاً، وفي أسرع وقت ممكن. وأمام الحاح الزوجة، وضغطها المتواصل، وعاطفة الأبوة، والخوف على ولدي أن يكون في ورطة كبيرة لا خلاص له منها إلا بالمال. تحت تأثير كل ذلك - بعثت داري التي أسكنها!! نعم!! لقد بعثتها بنصف ثمنها. لقد كانت تساوي أربعين ليرة. فيبعثها بمئتين لأجل ولدي الحبيب. واستدنت باقي الثلاثمائة وبعثت لولدي «إبراهيم» بالمال. وأخبرته بأني قد أفلست تماماً. وانقطعت رسائله علينا تماماً.. من حين أخبرته بالإفلاس الكامل.

(٦) ومر على سفره سبع سنين كاملة لم نر فيها وجهه قط. وحاولنا أن نبحث له عن خبر، فلم تفلح في ذلك. فسلمنا أمراً لله. وبقيت بلا دار؛ فاستأجرت غرفة صغيرة، سكنت فيها أنا وزوجتي. ولاحقني صاحب الدين يطالببني بسداد دينه... فعجزت عن قضائه. فأقام على دعواي في المحكمة، وناصرته الحكومة على: لأنَّه أبرز لهم أوراقاً، لم أدر ما هي!! فسألوني: أنت وضفت بصمتك في هذه الأوراق؟ قلت: نعم!... فحكموا علىي بأنْ أعطيه ما يريد،

وإلا فالحبس ينتظرنـي. وحبـستـ يا سـيدـي بـسبـبـ ولـديـ، الـذـي لـمـ أـرـ وـجـهـهـ مـنـذـ سـبـعـ سـنـواتـ، وـبـقـيـتـ زـوجـتـيـ المـسـكـيـنـةـ وـحـدـهاـ وـماـ لـهـ أـحـدـ إـلـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ. فـاضـطـرـتـ هـيـ لـلـعـمـلـ غـسـالـةـ مـلـابـسـ النـاسـ... وـخـادـمـةـ فـيـ الـبـيـوتـ... وـشـرـبـتـ كـأسـ الدـلـ... وـتـجـرـعـتـ شـرـابـ المـهـانـةـ فـيـ تـلـكـ الـبـيـوتـ حـتـىـ التـمـالـةـ..

(٧) خـرجـتـ مـنـ السـجـنـ بـعـدـ فـتـرـةـ تـزـيدـ عـلـىـ السـنـةـ... فـقـالـ لـيـ رـجـلـ مـنـ جـিـرـاـنـاـ الـقـدـامـىـ: يـاـ أـبـاـ إـبـرـاهـيمـ أـمـ رـأـيـتـ وـلـدـكـ؟! فـقـلـتـ لـهـ: بـشـرـكـ اللـهـ بـالـخـيـرـ! أـيـنـ هـوـ؟! فـقـالـ مـسـتـغـرـيـاـ: أـلـاـ تـدـريـ يـاـ رـجـلـ أـيـنـ وـلـدـكـ الـآنـ... أـمـ إـنـكـ تـتـجـاهـلـ؟!... هـوـ فـيـ الـحـيـ الـجـدـيدـ. فـيـ الـبـيـاتـ... لـمـ أـصـدـقـ ماـ قـالـهـ جـارـنـاـ؛ إـذـ كـيـفـ يـعـودـ اـبـنـيـ الـعـزـيزـ إـبـرـاهـيمـ مـنـ سـفـرـهـ مـنـ فـرـنسـاـ ثـمـ لـاـ يـسـأـلـ عـنـيـ، وـلـاـ عـنـ أـمـهـ. وـلـكـنـيـ كـنـتـ أـثـقـ بـكـلـامـ جـارـيـ... فـمـاـ جـرـيـتـ عـلـيـهـ كـذـباـ قـطـ... فـتـحـاـمـلـتـ عـلـىـ نـفـسيـ وـأـنـاـ عـيـرـ مـصـدـقـ لـمـ أـسـمـعـ. وـذـهـبـتـ أـنـاـ وـأـمـهـ إـلـىـ دـارـهـ الـفـخـمـةـ فـيـ الـحـيـ الـجـدـيدـ. وـمـاـ لـنـاـ أـمـنـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ، إـلـاـ أـنـ نـعـاـنـقـهـ، كـمـاـ كـنـاـ نـعـاـنـقـهـ وـهـوـ صـغـيرـ. وـنـضـمـهـ إـلـىـ صـدـورـنـاـ، وـنـشـبـعـ قـلـوبـنـاـ مـنـهـ بـعـدـ هـذـاـ الغـيـابـ الطـوـيلـ.

(٨) وـمـاـ قـرـعـنـاـ بـابـ الـدـارـ، فـتـحـتـ الـبـابـ لـنـاـ الـخـادـمـةـ. فـلـمـ رـأـتـنـاـ بـمـلـابـسـنـاـ الـمـتـواـضـعـةـ، اـشـمـأـزـتـ مـنـ هـيـئـتـنـاـ... ثـمـ قـالـتـ بـتـأـفـفـ: مـاـذـاـ تـرـيـدـونـ؟! فـقـلـنـاـ: نـرـيـدـ إـبـرـاهـيمـ! فـقـالـتـ: إـنـهـ لـاـ يـقـاـبـلـ الـفـرـيـاءـ فـيـ دـارـهـ. إـذـهـبـاـ إـلـىـ مـقـرـرـ عـمـلـهـ، وـقـابـلـاهـ هـنـاكـ، وـاـطـلـبـاـ مـنـهـ مـاـ تـرـيـدـانـ. فـقـلـتـ لـهـ مـعـضـبـاـ، أـنـحـنـ غـرـبـاءـ. أـنـاـ أـبـوـهـ وـهـذـهـ أـمـهـ. فـسـخـرـتـ الـخـادـمـةـ مـنـ كـلـامـنـاـ وـلـمـ تـصـدـقـنـاـ. فـدـخـلـنـاـ مـعـهـاـ فـيـ صـيـاحـ وـنـقـاشـ. وـسـمـعـ إـبـرـاهـيمـ وـزـوـجـتـهـ ضـجـجـتـاـ وـصـيـاحـنـاـ مـعـ الـخـادـمـةـ، فـخـرـجـ مـعـضـبـاـ وـهـوـ يـقـولـ: مـاـ هـذـاـ الصـيـاحـ؟!... وـلـمـاـذـاـ كـلـ هـذـاـ الصـيـاحـ؟!ـ لـمـاـذـاـ كـلـ هـذـاـ الضـجـيجـ؟!ـ وـخـرـجـتـ وـرـاءـهـ زـوـجـتـهـ الـفـرـنـسـيـةـ. فـلـمـ رـأـتـهـ أـمـهـ أـمـامـهـ بـعـدـ غـيـبـةـ سـبـعـ سـنـينـ، مـدـثـ يـدـيـهاـ إـلـيـهـ، وـهـمـتـ بـإـلـقـاءـ نـفـسـهـاـ عـلـيـهـ، وـالـأـرـتـمـاءـ فـيـ أـحـضـانـهـ. وـلـكـنـهـ بـكـلـ أـسـفـ اـبـتـعـدـ عـنـهـ، وـنـفـضـ مـاـ مـسـتـهـ يـدـاـهـ مـنـ ثـوـبـهـ الـأـنـيـقـ. وـقـالـ لـزـوـجـتـهـ: هـؤـلـاءـ مـجـرـدـ مـجـانـيـنـ!ـ ثـمـ أـعـطـانـاـ ظـهـرـهـ، وـاسـتـدـارـ عـائـدـاـ إـلـىـ دـاخـلـ الـدـارـ.

(٩) وـأـمـرـ الـخـادـمـةـ أـنـ تـطـرـدـنـاـ مـنـ الـبـابـ... فـطـرـدـتـاـ الـخـادـمـةـ شـرـ طـرـدـةـ مـنـ بـيـتـ وـلـدـنـاـ، الـذـيـ ضـحـيـنـاـ مـنـ أـجـلـهـ بـكـلـ شـيـءـ. أـصـابـتـنـيـ وـأـمـهـ صـدـمـةـ كـبـيرـةـ عـلـىـ إـثـرـ هـذـاـ الـمـوقـفـ... أـهـكـذاـ يـاـ إـبـرـاهـيمـ تـقـعـلـ بـوـالـدـيـكـ؟!... كـمـ لـيـلـةـ سـهـرـنـاـ لـتـنـاـمـ؟!... وـجـعـنـاـ لـتـشـبـعـ؟!ـ وـتـعـرـرـنـاـ لـتـلـبـسـ؟!ـ وـبـكـيـناـ لـتـضـحـكـ؟!ـ وـالـآنـ تـطـرـدـنـاـ مـنـ بـيـتـكـ شـرـ طـرـدـةـ... وـتـبـرـأـ مـنـاـ... بـلـ تـتـهـمـنـاـ بـالـمـجـانـيـنـ. نـعـمـ مـجـانـيـنـ حـيـنـ رـبـيـنـاـكـ وـعـلـمـنـاـكـ، وـأـنـفـقـنـاـ عـلـيـكـ الـفـالـيـ وـالـنـفـيـسـ، وـكـلـ مـاـ نـمـلـكـ. أـمـاـ وـالـلـهـ لـوـ عـلـمـتـ أـنـكـ سـتـفـعـلـ بـنـاـ هـذـاـ عـنـدـمـاـ تـكـبـرـ لـقـتـلـتـكـ بـيـدـيـ هـاتـيـنـ يـوـمـ وـلـادـتـكـ، فـمـوـتـ مـثـلـكـ خـيـرـ مـنـ حـيـاتـهـ.

(بـتـصـرـفـ مـنـ كـتـابـ: قـصـصـ مـنـ الـحـيـاـةـ لـعـلـيـ الطـنـطاـوـيـ)

الْوَحْدَةُ

الرّابِعَةُ عَشْرَةً

مَفْهُومُ الْأَمْنِ

القراءة المكتفة

الجمل التي لها محل من الإعراب

القواعد (أ)

هل أسئلة طفلك تقلقك؟

فهم المسموع (القسم الأول)

لماذا التجاهل؟ لكل سؤال جواب

فهم المسموع (القسم الثاني)

الجمل التي لا محل لها من الإعراب

القواعد (ب)

الْمِلْيُون

القراءة الموسعة